وضع المثقفين الإرهابيين

بقلم مطاع صفدي

ان من اكثر الثورات التي ارتبطت بالمثقفين من فئات المجتمع المختلفة الثورات العربية . وقلما كان الوعي هو المحرك والمحرض والموجه في البداية ، ومثلما كان المثقفون هم الرواد الطلائع ، فان حركية الثورة وسياقها الواقعي ونتائجها ، كانت في كل مرة تخرج من يد المثقفين وتستقل عنهم ، وتابع قوانينها الاجتماعية الخاصة ، فتنحرف او تسقط ، او تجهض ، وتقع في شباك العقد المرضية المزمنة في جسد الواقع الاجتماعي وفي روحه .

ومثلما كانت كل ثورة عربية في الاساس هي ثورة مثقفين ، فانها حملت معها كذلك ، الى جانب الوعي والرؤية المثالية ، مختلف امراض الطبقة المثقفة نفسها . وفعلت هذه الامراض فعلها المباشر وغير المباشر ، في بنية الثورة وتطورها . فمنذ نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين ، كان المثقفون الاوائل ، بعددهم القليل ، ووعيهم المثالي ، يؤلفون اول جزء من المجتمع الراكد ، ويفصلون اول قافلة منه ، تتحول الى طليعة .

لقد كان المثقفون العرب ، من بين مثقفي الامبراطورية العثمانية ، يدعون الى انبعاث القومية العربية ، من خلال الدعوة (الامبراطورية) العامة الى الديمقراطية وزوال الحكم المطلق الذي يمارسه سلاطنة آل عثمان . وكانوا يرون في الدعوة الى الديمقراطية سبيلا نحو يقظة الشعور العربي ، وامكان تفتحه حسب شخصيته التاريخية الخاصة .

فهم الذين كانوا من رواد الاستقلال القومي عن كيان الامبراطورية المنخور . ولقد فهموا هذا الاستقلال ضمن نوازعه الثقافية الداعية الى العلمانية ، واللحاق بركب الحضارة العالمية ، وتجاوز امراض القرون الوسطى .

فان جملة الاطباء والمحامين والاساتذة الذين عاشوا ازمات مطلع هذا القرن ، تمزقوا بين لسان تركي مفروض ، ولغة عربية ضائعة ، وآمال قومية محصورة في صدور قليلة وسط كتل من الجهل والظلام الذي كان يخيم على المدن العربية واريافها وبواديها .

لقد كانت دعوة المثقفين العرب (الخاصة) من بين دعوات سائر مثقفي الاتراك والامبراطورية العثمانية كلها السائرة في طريق الانهيار المحتوم ، كانت هذه الدعوة تفترض حرية الشعوب داخل الامبراطورية شرطا اساسيا لانقاذ (الامبراطورية) .

تلك خطوة اولى . واما الخطوة الخفية والمنتظرة ، فهي ان حرية الشعوب تعني عمليا انهاء التبعية لامبراطورية (الخلافة) . ومن هنا انفتح طريق الثورة العلمانية امام مثقفي العرب ، واستطاعوا ان يكونوا اول مفهوم عصري عن اسس الدولة المتحضرة الجديدة . فالحدود بين (الولايات) واختلاف الاصقاع جغرافيا ، وامتداد الوطن العربي متشعبا عبر الصحارى والجبال والسهول ، وعلى شواطىء عدة بحار ، ليس عائقا ابدا في وجه وحدة عربية ، ذات طابع حركي ثوري ، هي بمثابة اعلان كل تقدم عربي في مضمار الوجود الحضاري المنتظر .

ومنذ ان قامت الثورة العربية الكبرى ، من الحجاز ، هلل المثقفون في دمشق والقدس وبيروت وبغداد والموصل ، للحدث المعجز . ودون ان يعوا السياق الهجين لهذه الثورة ، التحقوا عاطفيا وفكريا ، وبعضهم عمليا ، بركب الملك ، وابنائه الامراء الثائرين .

وكانت النشوة العاطفية ، وتلك ايضا من امراض المثقفين المثاليين ، التي التهمت خيال المثقفين باحياء دولة الامويين ثانية ، قد اعمتهم عن السياق المشبوه الذي انصبت به هذه الثورة . لم يروا ذلك الاستغلال والتملك (الملكي) للثورة . لم يريدوا ان يروا ذلك (التعاون) بين الملك وابنائه من الامراء ، مع (الفرنجة) الاعداء التقليديين للعرب ولامبراطوريتهم ، ولكل حلم آخر بانبعاث هذه الامبراطورية مرة ثانية ، على تخوم اوروبا .

وعندما انطلق هذا (السياق) الثوري ، محققا خطوات هامة اساسية في تحرير البلاد من الاحتلال التركي ، وجد المثقفون ان دورهم (النظري) قد ابطلت مفعوله الاحداث ، (الواقعة فعلا) . وان الحلم بقيام امبراطورية دولة العرب الواحدة ، قد تحول عمليا الى احلام ملكية ، بتقسيم البلاد ثانية ، وتنصيب ملوك وامراء ، بحماية ممثلي الحضارة ، من عسكر الفرنجة ومندوبيهم ومستشاريهم .

ولكن اجيال الشباب المثقف ، التي وقفت وراء الدعوة الى تحرير العرب وانبعاث امجادهم ، هذه الاجيال التي عاصرت احداث ما قبل الحرب الاولى ، وتقاسم المغانم بعد الحرب ، وفجعت باعز امانيها .. وشاخت دفعة واحدة ، قد وجد بعضها انه مضطر للتفاهم مع الامر الواقع .

فالتحق هذا (البعض) سراعا كحاشية لهذا الملك وذلك الامير . وانضم البعض الاخر الى الوظائف (الاميرية) الكثيرة التي تطلبتها عملية الاستعمار الاوروبي الجديد و (تطوير) اجهزة السلطنة العتيقة الى (وظائف) عامة لخدمة الدول الناشئة (المتفرنجة) .

واما القسم الاخر ، القسم القلق المتمرد الذي واجه الهزيمة بشجاعة نادرة ، المثقفون الذين رفضوا ان يصبحوا واقعيين ، وتابعوا رصدهم العنيد لنتائج الهزيمة في نفوسهم ، وفي مركبات الهزيمة لدى الواقع الثوري المجهض المجمد ..

اما هؤلاء فقد رفضوا ان يتخلوا عن الثورة ، وراحوا يلاحقون امكانيات التفجر الجديد ، ضمن الشروط الاستعمارية والرجعية الداخلية . وانضموا الى ثورات سورية وفلسطين والعراق ، طيلة الربع الثاني للقرن العشرين . وبذلك وضعوا تقليد (الثورة الدائمة) ولو ضمن نوعها السلبي ، واشكالها الجماهيرية العفوية .

فالمثقفون ، وهم جيل من الشباب ، يتشابهون جميعا ، وهم على عتبة الثورة ، يخضعون لوطأة الوعي من جهة ، ولخفة الحلم من جهة اخرى . وعندما تقع الثورة ، وتصيب بعض النجاح والكثير من الفشل والخيبة ، ينقسم الجيل ، فالواقعيون الجدد منه ، يبحثون عن (صيغ تفاهم) مع المنتصرين ، ولو كانوا من اعداء الثورة . والحالمون القدامى ، يتحولون الى مغامرين ، يمسكون البندقية بيد ، ويمدون اليد الاخرى للسلطة . واما الباقون القلة فهم الذين تكتسبهم الثورة الدائمة . وهم الذين يضرمون نيران التمرد الجديد ضد الثورة القديمة التي احتلت مقاعد السلطة واصبحت اشرس مقاوم لزملاء الامس ، واعداء اليوم والمستقبل .

لقد وجدت الحكومات الكثيرة المتتابعة على مسرح السلطة في دول الشرق العربي الخاضعة للانتداب الاستعماري ، طيلة الربع الثاني من القرن الحالي ، وجدت هذه الحكومات صفوفا كاملة من المثقفين (المتعاونين) الذين احتلوا مراكز وزارية ، او مناصب ادارية كبرى .

ثم شكلوا ، مع الزمن ، طبقة بورجوازية جديدة ، مستعدة للتحالف مع اية سلطة ، تسمح لها بممارسة عملية تضخيم مصالحها المادية والمعنوية داخل المجتمع المتطور لصالح القوة البورجوازية الاقتصادية المتعاونة مع قوى الانتداب والاستعمار .

**

لقد اصبح المثقفون العرب يعانون من تمزق بين نموذجين ، نموذج الالتحاق بالمثقفين الغربيين من خلال دولهم المستعمرة ونموذج تأكيد الخط الحضاري الخاص بتطور مجتمعاتهم العربية . هذا التطور الذي يناضل عبر مقاومة الاحتلال الاجنبي ، من جهة ، ومقاومة ظروف التشكل التاريخي للبنية الذاتية لهذه المجتمعات .

ولذلك كان يلتبس الامر غالبا على هؤلاء المثقفين . انهم يريدون ان يشاركوا في هجوم المثقفين عامة خارج نطاق بلادهم ، فيتبنون الشيوعية من ناحية او الليبرالية من ناحية اخرى . أي انهم يقبلون انقسام المثقفين في الغرب الى دعاة ديمقراطيين ، يصنفون عادة الى جانب اليمين الليبرالي ، والى دعاة يروليتاريين ، يقفون الى جانب اليسار المتطرف .

واما المثقفون الثوريون المتمسكون بتراث الثورة العربية في الدعوة القومية ، فكانت نظريتهم تتمثل في موقفية مباشرة ، انها الدعوة الى (استمرار الثورة) ضد المستعمر و (الحكم الوطني) المتعاون . ولذلك ارتبط مصيرهم دائما ، بالحركات الشعبية في شوارع المدينة من جهة ، وفي جبال الارياف ، حيث تتجدد دائما قوى المقاومة الثورية ، وتنتقل بصورة دورية عبر سورية الكبرى ، شمالا وجنوبا وشرقا .

ان هذا الجانب من المثقفين ، لم يتهرب من حدود المعركة الى فكر رومانسي فردي ، ولا الى فكر بروليتاري لا جذر له في الواقع العربي آنذاك . لقد كان هذا الجانب امام الاهداف مباشرة ، وفي مركز الثقل من كل معركة وطنية تحررية .

ومع ذلك فان طابع الصراع العام مع الاستعمار وحكوماته الوطنية المزيفة ، في هذه المنطقة من العالم العربي ، كانت بعيدة عن العنف المادي الجماعي ، ضد بعض الثورات المنظمة والمسلحة . فلقد اقتصرت قيادة المثقفين على الدعوة الى التظاهر السلمي والاضرابات في الجامعات والمدارس والاسواق .

ومع ذلك ، فان الاصطدامات بين قوى المظاهرات السلمية ، والمقاومة العسكرية من قبل المستعمر او الحكومات الوطنية المزيفة المتعاونة ، كانت تؤدي الى بعض اعمال العنف واراقة الدماء .

ولكن المثل الثورية العامة ، التي ارتبطت بها فئات المثقفين ، عبر كل ذلك الماضي البعيد من تاريخ الحركات العربية الحديثة ، كانت في مجملها تدعو الى الاساليب (الديمقراطية) في مقاومة الحكومات المفروضة من قبل الاستعمار .

ومن ناحية اخرى ، فقد اعتمدت دعاية الثورة دائما على عنصر العنف الذي قد تضطر اليه قوى القمع الاستعمارية ، من جرح بعض المتظاهرين او قتلهم ، ومن اعتقال للزعماء والطلاب وابناء الشعب .

وخلال المعارك ضد الاستعمار والاحتلال المباشر ، كانت قوى الامة محتاجة دائما الى تأكيد الوحدة الوطنية ، بحيث لم يكن من السهل تمييز خط يساري من خط يميني في ساحة ، يقف في جانب منها شعب يكافح عن ارضه وحريته ، ويقف في جانب مقابل اجنبي دخيل .

ومع ذلك فان التدقيق في المكان الذي كان يشغله المثقفون من هذا النوع ، من الصراع الوطني المباشر ، يبرز ذلك التردد الفاجع بين الثورة المستمرة الى جانب القوى الشعبية ، وبين الثورة المرحلية التي تنقضي بانقضاء وصول المثقف الى المركز الذي كان يطمح اليه . فلا يتبقى لديه من ذكرى الثورة الا الاحتجاج اللفظي او الفكري ، على الاستعمار ، باعتباره مثلبة في جبين (المثل العليا) .

ان انقسام المجتمع العربي ، بعد الاستقلال ، الى طبقة حكم ونفوذ اجتماعي ، سياسي واقتصادي ، والى قوى شعبية مكافحة في سبيل الوحدة ، كطريق وحيد نحو القوة والتحول الاشتراكي ، اعطى للمعركة صورا من العنف ، لم تكن تعرفها من قبل ، مواجهة لقوى الاستعمار مباشرة .

لقد خضع الشرق العربي بعد الاستقلال لجدلية الثورة ، والثورة المضادة ، بشكل نموذجي ، حاد وشرس. وبدا ان التحول الوحدوي الاشتراكي هو اقسى مخاض حاسم تعانيه الثورية العربية في هذه المرحلة من كشفها للعقبات الاعمق ، في بنية التكون الاجتماعي الداخلي نفسه .

ان (العنف) يفرض نفسه بطريقة لا مفر منها على هذه الجدلية . فبقدر ما يتضح الطريق امام القوى الشعبية ، عبر عقد النجاح والنكوص ، فان العنف يصبح بالنسبة لها نضالا مستميتا دائما ، يتضاعف نشاطه كلما اشتدت وسائل قمعه . وبالمقابل فان الثورة المضادة ستسير في طريق الارهاب الجماعي حتما . ويساعدها على ذلك تمكنها من السيطرة على الجيش واجهزة الامن .

وعبر قطبي العنف : في القوى الشعبية المستميتة في نضالها ، وفي الثورة المضادة في الحكم ، والتي تخضع يوما بعد يوم لنمو وحشي مطرد في مركبات الارهاب الجماعي .. اقول : بين هذين القطبين تمارس الطبقة المثقفة نماذج معقدة من السلوك .

لقد انخرط المثقفون العرب في العنف ، انخرطوا جميعهم ، ومنذ اول مذبحة عقائدية قامت في دنيا العرب بأيدي العرب انفسهم ، في عراق قاسم ، وحتى الذين لم يلعبوا دور الزبانية ، ولا دور الضحايا من المثقفين ، فانهم اشتركوا ، بالصمت ، بالفرار امام الحقائق ، بتجاهل (الفضائح) الكبرى التي نظمها المثقفون وعقائدهم ، عندما اتيحت لهم فرصة الحكم .

فالمثقفون العرب ، في هـذه المنطقة ، الذابحون والمذبوحون والمحايدون ، جميعهم اشتركوا في الجريمة الجماعية . بعضهم عن طريق الممارسة . وبعضهم عن طريق التجاهل .

ان التعذيب والقتل والاعتقال ، وسائل من الارهاب، التي كانت مقترنة دائما ، وبصورة تكاد تكون مألوفة عادية، بتاريخ العرب ، منذ ان فقد العرب سيطرتهم على مصيرهم وخضعوا لنموذج (هولاكو) المستمر في الحكم ، منذ اكثر من الف سنة .

فمنذ ان اشترك شعراء وكتاب ، محامون واساتذة وطلاب ، في الارهاب القاسمي الشيوعي في العراق ، واشترك مثل هؤلاء ، واكثر منهم ، في الارهاب البعثي في سورية ، منذ عام وما يزال ، فان الجريمة الجماعية التي دأب على تنفيذها هؤلاء ، تمر تحت ستار من الخفر والحياء .

فالمثقف الذي يخرج من تجربة ارهاب ، والمثقف الذي سمع ورأى تلك التجربة ، كلاهما نموذجان صامتان، ينافسان صمت المثقف الذي ـ اشرف ـ و ـ مارس ـ بنفسه تجارب ارهاب .

فهل من عناصر تلك التجربة القذرة ، ان يطبق خجل اسطوري اصفر على علنية الفضيحة ؟ هل من المحتوم ان يشمئز المعذب من فضح معذبيه ؟.

هل يشفق المثقف المضطهد على نفسه فلا يذكر وقائع اهانته ، ويشفق على جلاديه ، من (زملائه) في الثقافة والعقائدية و .. النضال !

اليست هذه النموذجية السلوكية ، صورة عن تلك (التطهرية) السلبية التي طبعت اخلاقا (مثالية) ، لا تقر بالواقع ، ولا تستطيع ان ترى الدم ، لا على اعناق المذبوحين ولا على ايدي الجلادين ؟

**

ولكن لنر القضية عن قرب اكثر :

اولا : نحن لا نريد ان نناقش دوافع الارهاب ، ولا ظروفه . فلسنا نخوض الان بحثا ايدلوجيا ، ولكنه البحث الذي هو شرط كل ايدلوجية اصيلة . انه البحث ـ عن ـ الانسان . وكذلك فليس مجالنا الان تفنيد حجج الشيوعيين في مذابح العراق ، ولا حجج البعثيين في مذابح العراق ايضا ، و سوريا خاصة . .

ولنقرر منذ البدء هذه البديهية : انه لا حجة للارهاب أبدا . لا شيء قبله يمكن أن يبرر حدوثه . أي ليس له اسباب « محتومة » .

ولا شيء بعده ، يمكن ان يغطي على فظاعته . أي لا يمكن قبول اية نتيجة من نتائجه ، مهما كانت «انسانية»!

ان رفض « اسباب » الارهاب ، ورفض « نتائجه » ذلك هو موقف « الحرية » !

هذا ، أن كان ثمة اسباب فعلا للارهاب ، فكيف ان لم توجد مثل هذه الاسباب أطلاقا ؟

كيف لو ان الارهاب ، كان « خطة » ؟ كيف لو انه « صنع » بعناية ؟

مثقفون ، فكروا فيه . تأملوه ، تفحصوه . تصوروا ظروفه . نظموا مراحله . تفننوا في وسائله .. ابدعوا واخترعوا . ثم كان الارهاب هو نفسه ، عاريا من كل خديعة لانه لا شيء يفوق خديعته الذاتية . عاريا من كل تبرير ، لان كل تبرير هو الفاظ تمر فوق الحدث ، الحدث الموجود ، القذر كله .. تمر وتنقضي وتخلف جبنا في نفس الارهابي. فيخترع مبررات اخرى ، اي الفاظا اخرى. ثم لا يفعل ، أكثر من ان يؤسس الجبن اعمق فأعمق في نفسه القذرة . والمبررات الجديدة المختلفة ، تقوده الى تأكيد ذاته ثانية في حلقة اخرى من ممارسة الارهاب ، والتقدم في ميدانه ، وحيازة قصب السبق في تنافس الجبناء كلهم .

لقد كنا نتبادل النظريات احيانا مع جلادينا ، فكانت عيونهم تسارع الى الفرار ، بأن ترتدي سريعا قناع الحقد والغضب . كانوا يصطنعون الارعاب في عيونهم المتحجرة، وفي اصواتهم المرعدة . كانوا يحملقون اكثر ويصيحون اعلى واصخب . وبذلك يدفعون عن انفسهم الندم والخجل، كانوا يبرهنون انهم لم يخافوا بعد .

وكنا نعيش معا جميعا ، المعتقلون والجرحى والمعلقون من المعذبين ، والمدفونون في الزنزانات . وعلى بعد خطوات يعيش ، يأكل وينام ويثرثر طقم المحققين والجلادين والمساعدين ..

كنا جميعا اسرى للعبة رهيبة واحدة ، في قصر مظلم واحد للموت والقذارة . وكنا جميعا نمارس الخوف والحقد ، الضراوة واللذة الحافزة المسروقة . الضحايا ينتهي رعبها ما ان يبدأ رعب الجلادين . وكلما اوغل الجلادون في (وجودهم) الجديد ، حاولوا ان يغلقوا الابواب اكثر على انفسهم . بينما تزداد جماعية المعتقلين التهابا وتقاربا صميميا . حتى يصبح شعب السجن جزءا حيويا من الشعب كله خارج السجن . وبذلك تزداد حريته ، في حين تنغلق دارة الارهاب على ابطالها ، وتخلق لهم سجنا شفافا من هواجس وحشيتهم الجديدة المصنوعة .

لقد كنا نسأل اليس ذلك الجلاد اللئيم المحامي الفلاني . ومساعدوه اليسوا هم الاستاذ والاستاذ

ـ التتمة على الصفحة ٦١ ـ

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

وضع المثقفين الارهابيين

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

والاستاذ . حتى لقد سيطرت كلمة « الاساتذة » كمصطلح يومي على لسان المعتقلين ليدلوا بها على فئة الارهابيين الجدد .

الاساتذة الارهابيون !

وكلما تكررت ليالي الارهاب ، كان مثقفون معتقلون يسألون : ترى وما موقف الاستاذ فلان ، والدكتور .. وو؟؟

لقد كان المعتقلون يشعرون ، دون جهد تأملي ، ان مثقفي الحزب ، من تبقى منهم ومن لم يبق ولكنه لم يعلن موقفه ، كل هؤلاء متورطون ايضا مع زملائهم من المثقفين الجلادين ، الممارسين في اقبية المخابرات وفي سجون سوريا كلها ، وسجن المزة خاصة .

ان الارهابي ، ولو كان في صف الحقيقة ـ وذلك مستحيل ـ ، فانه يظل بدون حقيقة . ان الحقيقة بدون الانسان هي كذب . والارهابي ، كاذب ، وسفاح للحقيقة اينما وجدت .

ومع ذلك فهل ترانا ادركنا ماذا تعنيه كلمة الارهاب فعلا ؟

لقد مارس هولاكو والشعوبيون والاستعمار والسنغال الارهاب ضد شعوب الشرق ، ولكن المثقفين العقائديين من العرب في العراق وسورية ، ووراء اكبر حركتين لليسار العربي ، الشيوعيين والبعثيين العفالقة ، من دكاترة ومحامين واساتذة وضباط مثقفين ايضا ، فاقوا كل هؤلاء في ارهابهم .

فهم عرب . وهم عقائديون . وهم من طلائع نضالية كان لها جولات هي ايضا ضد الظلم والطغيان .. وهم فوق هذا وذاك لم يكونوا مضطرين . بل لقد اصطنعوا الارعاب . ثم حذقوا فن التقتيل الدموي والنفسي .. وتحولوا هكذا الى جبابرة وطواغيت من كرتون .

وفي عالم الارهاب هناك تفاوت وتفاضل ايضا ، فالارهابي بالفطرة ، هو غير الارهابي بالفكرة . ان الثاني اشمل وعيا بالارهاب وافانينه ، فهو اخطر ، وهو اكثر جبنا في الوقت نفسه .

ولقد تميز ارهاب البعثيين العفالقة ، عسكريين ومدنيين ، بانه كان **هجوما شاملا** ، على الاكثرية الساحقة من الشعب .

وكان هذا الهجوم يحدث بأساليب مختلفة . فتارة بأسلوب حرب حقيقية ، تستخدم الدبابات والمصفحات وارتال المشاة ، وتداهم الاحياء ، وتشن (تمشيطا) كاملا لالاف البيوت . وتقذف الرصاص والقنابل تارة نحو الفضاء ، وتارة نحو اهداف حقيقية .

وخلال عام واحد شن البعثيون الارهابيون هذا النوع من الهجوم ومارسوا احتلاله الخاص ، على الشعب السوري في مدنه الرئيسية عدة مرات . لقد ابتدأوا الارهاب الجماعي منذ الشهر الثاني من ثورة اذار ، أي في شهر نيسان . فنزلت الآليات معززة بقوى هائلة الى شوارع حلب . وضربت المتظاهرين بالرصاص من خلال تنظيم (الرتل الاحادي) . ثم شن هجوم اخر على الطلاب في درعا . وارغم طلاب في مدينة (جبلة) على لعق اسفل احذيتهم وتعليق هذه الاحذية في رقابهم . وسمع اوائل المعتقلين الوحدويين في سجن المزة صراخ اول ضابط ، افقده الارهابيون عقله تحت وطأة التعذيب .

كل ذلك في الاشهر القليلة التي تبعت ثورة اذار ، وقبل ان تقع حوادث الثامن عشر من تموز ، الحجة الكبرى لتعميم الارهاب البعثي وتفجير اعلى طاقاته (الثورية) .

و (اكتسح) البعثيون بالجيش السوري مدينة دمشق منذ يوم الثامن عشر من تموز بكل انواع الاسلحة الخفيفة والثقيلة . و (انتصروا) على المدينة الباسلة خلال ساعات .

وتحول (الحزب) خلال ايام الى فرقة ارهابية كاملة العدة النفسية والعسكرية . و (غطى) الحزب البلاد بانواع من جيوشه الجرارة : بالحرس اللاقومي ، بالمخابرات العسكريه ، بالشعب السياسيه ، ولها مراكز في كل حي ، بالمتبعثين الجدد .

وخلال ايام ، لم تبق عائلة واحدة الا ونكبت قريبا او بعيدا ، بفرد او بأفراد منها ، اختفوا ، قتلوا ، او اعتقلوا او شردوا .

وهكذا بدأ شيء جديد في سوريا ، اسمه **الاحتلال البعثي** .

ومنذ ان بدأ « الاحتلال البعثي » رسميا استبيحت سوريا كلها ، وما زالت مستباحة امام مختلف وسائل الارهاب . وتتابعت حملات الهجوم على الشعب ، فقد هوجمت احياء كاملة من مدينة حلب عدة مرات . وهوجمت مدينة درعا كذلك . ثم بلغت ذروة الارهاب المنظم ، يوم استأنف الارهابيون حربا حقيقية كاملة ضد مدينة صغيرة واحدة ، هي حماه . فقد ضربت بالمدافع ، واخترقت احياءها الشعبية الدبابات والمصفحات . وعجن البشر بتراب بيوتهم واحجارها . واشترك في هذه الحرب (المقدسة) لواءان كاملان . واشرف على التنفيذ هيئة كاملة من اركان حرب البعثيين ...

**

لقد كان المثقفون البعثيون ، في حزب عفلق الجديد، منخرطين الى آذانهم في الارهاب . ولا يفيدهم قطعا ان يلقوا التبعات على العسكريين . فالقادة (الفكريون) المدنيون كانوا يهيئون صبيان (البعث) الجدد ، للحرب المقدسة التي سيدخلونها ضد الشعب ، منذ الثامن من اذار . وكانوا بين حين وحين ، يقومون بتجارب (استنفار) لهؤلاء (المستجدين) و (بالاساحة الحية) . ويدربونهم على حرب الشوارع .

والمثقفون البعثيون ، هم الذين سيطروا على قيادات مختلف دوائر الامن والمخابرات . والمعتقلون في حلب ودمشق واللاذقية ودرعا ، يذكرون (زملاءهم واصدقاءهم) القدامى ، من محامين واساتذة وموظفين

مدنيين نظيفين ، الذين قاموا باعتقالهم بانفسهم ، او اشرفوا على سجنهم . او قاموا ، هم انفسهم ايضا باستجوابهم والتحقيق معهم ، او بالاحرى التنكيل بهم بالسياط والكهرباء ، والتعليق من الاقدام ، والدفن في الرمال .

وعفلق والبيطار لا يمكنهما ابدا ان يتبرءا من حمامات الدم ، التي كان يشرف عليها وينفذها تلامذتهما وحواريوهما . وعفلق يعلم تماما ان اقرب حواريه اليه اصبحوا من قادة الشعبة السياسية .

وعفلق كان موافقا بصراحة على ما يجري في السجون والاقبية طيلة اشهر بعد الثامن عشر من تموز . لقد كانت هناك وفود تتصل به وتحدثه عن (القطاعات) في المزة . فكان (الصوفي الكبير) ، يبرر ذلك بضرورة (الثورة) . وخلال هذه الفترة الرهيبة المظلمة ، التمعت شخصيات فذة في عالم الاجرام العقائدي الجماعي في سجون حلب ودمشق ودرعا خاصة . وصارت بمثابة نماذج اسطورية في تاريخ الارهاب . وان احدا من المعاصرين لهذه الحقبة لا يمكن ان ينسى هذه الشخصيات، ولا اسماء اصحابها . ومن المفجع ان بعضهم من المحامين والقضاة ، وبعضهم اساتذة ، وبعضهم الاخر ضباط مثقفون .. وشعراء اخيرا !

قد يكون منفذو الارهاب مباشرة قلائل ، ولكن المخططين ، من القادة عسكريين ومدنيين ، والساكتين عن الارهاب ، والمبررين له ، ومفلسفي (ضرورته الثورية) من كتاب وصحفيين ومذيعين ، وفلول المحتجين النادرين .. كل هؤلاء غارقون في مسؤولية القتل والسحل والشنق والاعتقال والتشويه والتشريد ، الذي لاقاه الوف ، الوف حقيقية من ابناء سورية خلال اقل من عام . اظلم عام في عمر اقدم بلد على وجه الارض .

وبالمقابل فان هناك الالاف الذين لاقوا الارهاب في اجسادهم وارواحهم وعقولهم ، ومعهم بقية الشعب ،الذي طارده شبح الارهاب في كل منعطف من مدينته . فلقد انتشرت اخبار التعذيب في كل مكان ، وساعد على نشرها البعثيون انفسهم كجزء هام من سيكلوجية الارعاب الجماعي . فلقد كان اهل المعتقلين يسمعون بأخبار من ضرب ومن عذب ليلة كذا او كذا ، مثل المعتقلين انفسهم .

ومن ناحية اخرى فلقد نشر البعثيون اكبر جيش من المخبرين عرفته (تقاليد) المباحث والمخابرات السورية، و (غطوا) بهم كل خلية في المجتمع ، ولم ينسوا بالطبع حزبهم نفسه ، الذي انعكست على افراده سريعا ادوات الارهاب ، وراحت تلتهمه برعب جديد مضاعف .

ومع ذلك فلا بد من التساؤل : ولماذا الارهاب ؟ هل هو اختيار ما ؟ ام انه قدر محتوم . وهل لمثقف ، مهما كانت عقيدته السياسية ، ان يمارس الارهاب ، ان يشارك في التنفيذ ، او في قبول الارهاب ؟

ان بعض المتطرفين من المفسرين (الحرفيين) للماركسية يعتقدون ان ثورة البروليتاريا لا تتم الا بالعنف، ولا يمكن حمايتها في المرحلة التالية ، الا بمزيد من العنف ايضا . وبالرغم من اننا لا نريد ان ندخل في نقاش ايدلوجي مع هذا الطراز من الفكر الثوري الاحمر ، الا اننا نقول أن الحكم المرتكز الى اكثرية الشعب ، والبروليتاريا هي هذه الاكثرية ، لا يمكن ان يلجأ الى الارهاب . فقد تكون (الشدة) لفظا افضل لتلك الصرامة التي يحتاجها حكم شعبي ثوري حقيقي . و (الستالينية) بالرغم من انها انحراف ماركسي في الفكر والتطبيق ، فانها كانت حكما ارهابيا بمعنى الكلمة . ولكنها ، لاعتمادها مع ذلك على الاكثرية من جماهير الكادحين ، فقد وجد من يدافع عن هذا الارهاب ويبرره .

فليس حتما اذن ان تمر الثورات الاشتراكية بمرحلة الارهاب ، خاصة اذا وجه هذا الارهاب الى ابناء الشعب الثائر نفسه .

وحتى الانظمة البوليسية المركزة ، والمقترنة بالنازية والفاشية ، كانت تستند هي الاخرى الى تأييد الاكثرية . ولذلك فان الاكثرية الالمانية ، ايام الحكم النازي ، لم تكن الاقلية المعادية للنظام .

اما الارهاب البعثي العفلقي ، والسعدي من قبله في العراق ، فلم يكن له حتى فضائل الارهاب النازي او الفاشي . فاذا قارناه ، بالعنف المصاحب لتحول البروليتاريا من قاعدة المجتمع الى قمته ، وجدنا ان العنف البعثي لا صفة اجتماعية له على الاطلاق . انه لم يكن في الاصل من اجل حماية الكادحين او البورجوازيين . ولذلك فانه من نوع ارهاب القلة ، المسيطرة على الحكم لغاية المصلحة الفردية للحكام انفسهم . والبعث ، في عهده الجديد ، لم يستطع ان يتجاوز بضع مئات . فلم تتح له اذن ان يدعي تمثيل مصلحة اية مجموعة كبيرة من المجتمع او اية طبقة فيه .

فهو ارهاب قلة معزولة اذن . ومحاصرة بعداء شعبي لاهب حولها . ولذلك يمكن ان يوصف هذا النوع من الارهاب ، بأنه ارهاب العصابة المسلحة المسيطرة على بلد ما ، لغاية نهبه والاستمتاع بخيراته .

فليس للارهاب البعثي صفة العنف المصاحب للتحول الاشتراكي . فلقد كانت طبقات العمال هي اعدى اعدائه. وليس للارهاب البعثي صفة الموافقة من قبل الاكثرية المخدوعة التابعة لنظام نازي او فاشي .

ومن هناك تتضاعف مسؤولية من تبقى من المثقفين بين صفوف البعث ، في اجنحته المتصارعة ، او في ارومته الجامدة . انهم وحدهم من يساعدون على استمرار قناع الحزبية على وجوه الارهابيين الاصليين . وهم وحدهم ، كذلك يحافظون على صفة الحزبية لحكم اهوج شرس لا هوية له في الفكر ، او في التطبيق ، ما خلا بطولات القمع ضد الجماهير وقياداتهم .

ان الصمت والانزواء ، ومحاولة اقناع الذات

بالقدرة على تصحيح الانحراف في خط الحزب وقادته الفعليين ، كل هذه النماذج من السلوك الوهمي ، انما هي سبل للفرار من مواجهة المسؤولية ، قد تصل احيانا الى درجة الجبن والتواطؤ مع (الامر الواقع) ، للمحافظة على حد ادنى من المكاسب ، من وراء بقاء الحزب في صورة الحكم على الاقل .

لقد كان الارهابيون البعثيون يحاولون منذ البدء ، ان يلوثوا معهم ، اكبر عدد ممكن من الايدي الاخرى . فكانوا يخلقون مناسباب مفتعلة لالهاب جو المزايدات في ميدان (الثورية) . حتى لم يعد ثمة مضمون للثورية هذه، الا في التنافس حول عدد الضحايا ، او حول عينات مبتكرة من نوعيات جديدة في فنون الارهاب الجماعي والفردي.

وبذلك يقتصر الانجاز الثوري على تجنيد مخبرين ، وبناء سجون ، وتدريب فرق من الجلادين ، وتوزيع اوسمة الحرب على ابطال الاقبية والزنزانات وحمامات الدم .

ان الارهابي ، لكي يدفع قليلا بهواجسه بعيدا ، يزيد في ارهابه ، ويدفع باخرين الى مشاركته . وهكذا تتعاظم خلية الارهابيين حتى تأكل جسد الحزب كله . والعاجزون من بعض المثقفين ، ينحون جانبا ، ويصبحون موضوعا للتندر والاحتقار . فالارهابي لا يحترم الا الارهابي . انه يصف الاخر بأنه : رجل ، جدع ، عقائدي ، ثوري .!

كثيرون تحدثوا عن سيكولوجية الارهاب والارهابيين. وتناولوا نماذج كبرى في التاريخ امثال (جنكيز خان) و (هولاكو) و (نيرون) و (روبسبيير) ، وحتى وصل بعضهم الى (بيريا) وزير داخلية ستالين .

فاصحاب نظريات التحليل النفسي ، وجدوا في هؤلاء الطواغيت مرضى منحرفين . بعضهم يشكو عاهة نقص نفسي في طفولته ، كفقدان حنان الام ، او الغيرة من الاخوة ، او عقدة (اوديب) . وبعضهم قد يشكو من بنية جسدية ضعيفة ، او من عزلة اجتماعية ما . فان مركبات النقص والضعف والتشويه والانحطاط الاجتماعي ، قد تنقلب في حال التملك من سلطة ما ، الى طغيان وحشي ، يسيطر على صاحبه اولا ، ويسوقه عبر لذات جهنمية منحرفة ، من ممارسة للطغيان والارهاب ، اعقد فأعقد . حتى تمحي ارادته امام ادمانه الشيطاني ، المتعاظم القوة والقسوة معا .

وان ضحايا اقبية وسجون البعث خلال العام الفائت لا شك يذكرون كيف ان المدني الاحتياطي ، يسعى دائما الى ضرب كبار الضباط وشتمهم . وكيف ان نكرات من بعض المثقفين الصغار ، كانوا يتلذذون بتعذيب محامين واساتذة معروفين .

وكيف ان طلابا سابقين اندفعوا الى اهانة اساتذتهم .. وان اقزاما ومعروقين ومشوهين جسديا ، كانوا يتصدون لضرب وتشويه الضباط في اجسامهم المنتصبة السليمة ، وفي بعض اعضائهم الصحيحة .

وبين الجلادين ، نكرات اجتماعيا وثقافيا ، وفاشلون في الحب والجنس ، ومغمورون حتى في ضربهم ، اصبحوا حكاما مطلقين في الاقبية والزنزانات المظلمة .

حتى ان العهد الارهابي بطبيعته يجذب المنحرفين والمشوهين قبل غيرهم . ثم يقفز هؤلاء الى المقدمة ، ويسيطرون على الآلة التي صنعتهم ، ويوجهونها حتى ضد اسيادها الاصليين .

ولكن المصيبة تتضاعف ، عندما يكون هؤلاء المشوهون مثقفين ايضا . فان هذه الثقافة ، سوف تخدمهم في اخفاء عقدهم ومركباتهم الاصلية ، تحت برقع الاهداف الثورية، والافكار الايديولوجية .

فيعمد الارهابي المثقف ، المنحرف نفسيا ، الى الزام منظمته بكل مأثرة طغيانية جديدة . وهو محتاج دائما ان يعلن افعاله باسم الجماعة او المنظمة . وكذلك فانه محتاج، الى الصاق اكثر شعارات ثورته ضجة وافتعالا ، بمخازيه الفردية . ومن ناحية اخرى ، فان المنظمة الارهابية ، تتغذى من مجموع منجزات اعضائها في عالم الارهاب والارعاب الجماعي .

وفي هذا البحران ، من تبادل المنافع بين المنظمة واعضائها ، تزداد مواقف المثقفين المحتجين صمتا حراجة. انهم معرضون للدفع بالخيانة والتواطؤ مع الاعداء ، اذا ما حاولوا ان يمارسوا احتجاجهم الصامت من خلال اي تحقيق عملي .

فالصمت غير مجد وحده . وكذلك الانسحاب في نوع من الحرد المتعالي .

ولا شيء يرد للمثقف الثوري حريته ، الا اعلان نضاله ضد ارهاب زملائه السابقين . ان مجرد الانفصال الصامت ، الذي لا ينقلب الى نضال سافر فاضح ، لا يؤلف (موقفا) . لان هذا السلوك سوف يساعد المنظمة الارهابية على استمرار متاجرتها بعضوية هذا المثقف . وسوف تحيط صمته بهالة من الغموض ، تفسرها حسب مصالحها هي .

لا شيء يعري الارهابيين المنحرفين الا التخلي عنهم نهائيا ، والدخول معهم في معركة افتضاح وتعرية كاملة. ولا قيمة هنا للصلات الشخصية القديمة . انها .. هي الاخرى ، تمثل العقبات الاعمق التي تمنع المثقف عن استرداد حريته .

فعندما تصبح مسألة حياة الشعب وكرامته واهدافه الحقيقية ، هي موضوع المساومة القذرة ، والمفاضلة بينها وبين مصلحة الحزب ، فان المثقف مدعو ان يتخلى عن ماضيه مع المنظمة المنحرفة ، وعن ثروة من العلاقات الانسانية مع بعض افرادها ، من اجل ان يعيد مستقبله الى مستقبل الغالبية من ابناء شعبه ،وان يجعله جزءا منه ، ويقبل المراهنة الكبرى ، من اجل تحقق الاهداف الكبرى .. حتى عندما يزول الارهاب والارهابيون ، الكبار الهرمون والصغار المستجدون !

مطاع صفدي